التطور التاريخي لحقوق الانسان

ان التاريخ حلقات متصلة يكمل بعضها البعض فالماضي وسيلة لفهم الحاضر كما ان الحاضر يعيش في الماضي وكلاهما يرسمان ملامح المستقبل وموضوع حقوق الانسان ليس وليد العصر الحاضر وانما هو قديم قدم الانسانية نفسها ويشكل جزءا لا يتجزأ من تاريخها وقد ارتبط بالمجتمعات البشرية منذ بدء الخليقة وتأثر سلبا وايجابا بالظروف الزمنية والمكانية لتلك المجتمعات وبالتيارات الفكرية والتقاليد السائدة فيها كما ارتبط بشرائع السماوية واخرها الشريعة الاسلامية.

لذا يجب ان نتعرف على تاريخ حقوق الانسان ونفهم مراحل تطورها ولنستعيد ثقتنا بديننا وانفسنا فالإسلام هو اول من قرر المبادئ الخاصة بحقوق الانسان في اكمل صورة واوسع نطاق وهذه المبادئ التي طالما صدرناها للناس يعاد تصديرها الينا على انها من الغرب.

ان تاريخ حقوق الانسان مرت بثلاث مراحل اساسية هي:

المرحلة الاولى: حقوق الانسان في الحضارات والمجتمعات القديمة وتبدأ هذه المرحلة من بدأ الخليقة الى القرن الخامس الميلادي بسقوط الامبراطورية الرومانية.

المرحلة الثانية : حقوق الانسان في العصور الوسطى وتبدأ من ظهور الاسلام الى القرن الخامس الميلادي وتنتهي بالقرن الخامس عشر الميلادي وتحديدا عام ١٤٩٢م.

المرحلة الثالثة: حقوق الانسان في العصر الحديث وتبدأ من القرن الخامس عشر الميلادي على ان هذه المراحل لم تكن منفصلة تماما بعضها على بعض ولا توجد فواصل زمنية محددة بينها فحقوق الانسان لم تنتقل من مرحلة الى اخرى دفعة واحدة وانما على شكل مراحل اذ كان اعلان الاستقلال

الامريكي لحقوق الانسان عام ١٧٧٦م والاعلان الفرنسي لحقوق الانسان ١٧٨٩م كفواصل بين هذه المراحل لان هذه الاحداث الثلاثة تشكل نقطة تحول مهمة في تاريخ مسيرة حقوق الانسان.

المرحلة الاولى : حقوق الانسان في الحضارات والمجتمعات القديمة.

من المعلوم ان كتابة التاريخ قد بدأت بعد ظهور الحضارات بمدة طويلة لذا يصعب تلمس معالم حقوق الانسان في المجتمعات البدائية التي تمثلت تاريخيا بظهور القرية ثم المدينة . وقد بنى كثير من الباحثين نظرياتهم عن الحياة في المجتمعات البدائية على حدس والظن والافتراض او باستعانتهم بدراسات التي قام بها عدد من علماء الاجتماع لحياة القبائل المتوحشة والجماعات البدائية التي مازال يعيش كثير منها حتى الان بافتراض انها تمثل المجتمع البشري الاول لأنها عاشت منعزلة عن العالم المتحضر وقد ذهب بعض هؤلاء الباحثين في تصورهم الحياة البشرية الاولى الى حد القول بوحشية الانسان الاول وشيوعية الجنس التامة في العلاقة بين الرجل والمرأة والشيوعية ملكية وسائل الانتاج وبأن الانسان البدائي كان يعيش بحسب ما تمليه عليه غرائزه مشبعا رغباته في جو من الحرية التامة التي تقارب الانفلات من اي قانون.

وذهب اخرون الى القول بأن حقوق الفرد في المجتمع الفطري اقل منها في حالة المدينة وان ذلك الفرد كان يعيش في نطاق العشيرة او القبيلة التي تعد مسؤولة عن افعال ابنائها فاذا وقعت جريمة فأنها لا تنسب اي فرد بل هي امر يشترك فيه افراد الجماعة وان العشيرة محكومة بعادات لا تقل في صرامتها عن اي قانون. لكن المنطق لا يقبل هذه التصورات وهو ان الانسان يعيش بحسب ما تمليه عليه غرائزه لان البشرية لم تخلق بأرض لتعيش حياة الفوضى بل ان المجتمع البشري الاول قد سار مدة طويلة محفوفا بالعناية الإلهية والرعاية الربانية وهذا لا يعني انه لم تقم مجتمعات بشرية على الصورة التي صورها الباحثون في التاريخ البشري لكنها تفتقر الجانب الديني.

حقوق الانسان في بعض الحضارات القديمة

١. حضارة بلاد وادي الرافدين : ان الحقب التاريخية التي مرت على العراق القديم هي العهد السومري والأكدى والاشوري والبابلي وقد شهدت تطورا كبيرا في التمدن الانساني وان حضارة بلاد الرافدين (العراق القديم) هي اقدم حضارة في العالم من خلال تاريخه في جوانبه المختلفة: الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي.

الذي يهمنا الجانب الاجتماعي فقد أنشا اكثر القوانين لإعطاء الانسان حقوقه والتعرف بواجباته فالحرية والعدالة والمساواة كانت من الافكار الاساسية التي تجسدت في كثير من القوانين منها : قانون اور-نمو ، قانون لبت – عشتار ، قانون اشنونا ، قانون حمورابي، القوانين الاشورية. ولا ننكر ان هنالك طبقات في المجتمع العراقي القديم وهي طبقة الاحرار وطبقة العبيد وطبقة الوسطى كما هو الحال في باقي المجتمعات القديمة كالمجتمع المصري واليهودي والاغريقي والروماني وان التمييز ما بين طبقتين رئيستين فقط هي طبقة الاحرار وطبقة العبيد ويلاحظ ان حال طبقة العبيد في العراق القديم كانت احسن بكثير من الوجهتين الاجتماعية والقانونية اذا قارنها بحال العبيد في المجتمعات القديمة الاخرى فكان الحكام العراقيون والمصلحون والاجتماعيون يسعون دائما لإعطاء المزيد من الحماية لطبقة العبيد وخلاصها من العبودية كما ان المجتمع العراقي لم يكن مجتمعا طبقيا مقفلا بل ان الاساس لتميز بين الافراد وهو حالة الفرد الاقتصادية وامكاناته المادية وذلك بسبب اعتماد المجتمع العراقي القديم على التجارة ولكن ما يحسب له على انه مجتمع انساني فمن خلال وقوف القوانين العراقية بجانب الطبقة الكادحة وحمايتها من الاستغلال من قبل الاغنياء والمتنفذين.

٢. الحضارة اليونانية: وهي حضارة تمتاز بالفكر الفلسفي والسياسي ومن ابرز المفكرين اليونانيين الذين اهتموا بالسياسة وحقوق الانسان هو (صولون) (الذي توفي : ٦٥٠ ق.م) والذي اصدر قانونا عرف باسم قانون صولون حيث اكد فيه على الغاء الرق ووضع نظام للشراكة ووضع قاعدة لتقسيم التركة.

وكان المجتمع اليوناني مقسم الى اربع طبقات وهي : طبقة الاشراف وطبقة اصحاب المهن وطبقة الفلاحين والفقراء وطبقة الأرقاء واعتبروا ان الفرد ناقص بطبيعته وعاجز على ان يستقل بنفسه لذلك

قامت الدولة بالتدخل في حياته وحريته الشخصية كالزواج وتحديد كمية الملابس التي تحملها المرأة عند السفر.

٣. الحضارة الرومانية: توصف الحضارة الرومانية بأنها حضارة عسكرية وحضارة القانون وقد رافق هذا التوسع وجود تمييز بين المواطن الروماني وغيره من رعايا الامبراطورية اذا كان يخضع كل منهم لقانون خاص به ، الامر الذي يتنافى مع مبدأ المساواة امام القانون لكن بمرور الزمن انشأ قانون الشعوب المستند الى جميع الاعراف وقواعد العدالة والمرتكز على فكرة القانون الطبيعي وقد شهدت الامبراطورية الرومانية بزوغ فجر المسيحية التي اكدت في تعاملها كرامة الانسان لان الله هو الذي خلقه ودعت الى المساواة بين الجميع امام الله والى تحرير العبيد.

كما اكدت على التسامح والاخاء والمحبة وكانت اقوال السيد المسيح تؤكد على ذلك بقوله ((احبوا اعدائكم ، احسنوا الى مبغضيكم من ضربك على خدك الايمن فأعرض له خدك الايسر)).

حقوق الانسان في الاسلام :

لقد تميزت حقوق الانسان في الاسلام بميزات تختلف عما جاء في النظم الوضعية فهي منحة إلهية. وهذا ما اكده الاعلان العالمي لحقوق الانسان في الاسلام في مقدمته (ان حقوق الانسان في الاسلام ليست منحة من ملك او حاكم او قرار صادر عن سلطة محلية او سلطة دولية وانما هي حقوق ملزمة مصدرها الهي لا تقبل الحذف ولا الفسخ ولا التعطيل ولا يسمح بالاعتداء عليها ولا يجوز التنازل عنها والالتزام بها اي يجب احترامها من الحكام والمحكومين مهما كانت مكانتهم الاجتماعية لانهم متساوون في العبودية له وتتصف بالدوام فلا تحتاج اصولها للتغيير او التبديل الا ان ثباتها لا يعني عدم الاجتهاد والتوسع في فهمها بما يلائم متطلبات الحياة الجديدة وهي عامة لم توضع مدة معينة او زمان معين). وفي الاسلام هنالك ترابط بين السلطتين الدينية والدنيوية فلم يكن الاسلام دينا فقط له عقائده المعروفة بل هو دين ودولة معا وهذا دليل على شمول الإسلام لكل جوانب الحياة فضلا عن تنظيم العلاقات بين الانسان وخالقة.

نظرة الدين الاسلامي الى الانسان

ان الانسان كائن مكرم وهو سيد الكائنات جميعا ذلك ما يحمله الإسلام في شريعته وتصوره لكي تتعلم البشرية في كل زمان ومكان ان اغلى الكائنات واعظمها هو الانسان على ان يكون مؤمنا صالحا لا جحودا ولا شريرا. ومما هو معلوم في شريعة الاسلام ان الكون بما يحتويه من اجزاء وتفصيلات ومركبات مسخر اصلا للإنسان لينتفع به وبمحتوياته فيما يحقق له الخير والسعادة . وقال عز وجل ((وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعا منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)) (سورة الجاثية الآية ١٣) وغيرها من الآيات الكريمة التي تكشف عن تكريم الانسان لتسخير الكوم واجزاءه له وذلك من السماء والارض بما فيها من كواكب ونجوم وانهار وبحار وليل ونهار وزرع وماء وثمر كل ذلك جعله مسخر لذلك الكائن المميز.

فان الانسان هو سيد المخلوقات في هذا الوجود وكل الوجود عابد لله سبحانه وتعالى يدين له بالتعظيم ويقرأ له بالإلهية والوحدانية قال سبحانه ((تسبح له السماوات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا يفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا))(سورة الاسراء :الآية ٤٤). ان البشرية في هذا الزمان تعاني الشدائد من ويلات وكوارث وشرور كالقلق والاضطراب وافتقاد الراحة والسعادة. ان الانسان هو الكائن المفضل والمكرم الذي كتب الله له الصدارة في سلم الخليقة والكائنات جميعا قال سبحانه ((لقد كرمنا بني ادم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطبيات وفضلناه على كثيرا ممن خلقنا تفضيلا))(سورة الاسراء :الآية ٧٠).

ومن اول الدلالات على افضلية الانسان وتميزه على غيره في هذا الكون وانه سيد الكائنات ان جعله الله في الارض خليفة وذلك اختيار رباني عظيم له مدلوله الكبير الذي يؤكد افضلية الانسان ان كان مؤمنا عاملا صادقا، وذلك لما يناط به من عظيم الامانة والمسؤولية.

وما كان الانسان ليكون خليفة لولا انه مشحون بزاخر المواهب والطاقات وعظيم القدرات والاستعدادات التي تمكنه من هذه المسؤولية بالخلافة في هذه الحياة الدنيا بقوله سبحانه وتعالى ((واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة)) (سورة البقرة : الآية ٣٠).

حقوق الانسان في العصر الحديث

كان (مارتن لوثر توفي : ١٥٤٦ م) زعيم لحركة الاصلاح في المانيا البروتستانتي وناكر على الكنيسة ورجال الدين ان يكونوا وسطاء بين الانسان وربه بل يتوقف على ايمان الانسان بنفسه. وقد تبعه عدد من المفكرين والاصلاحين في الغرب شهدت أوربا وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر وبداية القرن السابع عشر بظهور الثورة الصناعية وما رافقها من استكشاف جغرافي، واتساع التجارة ونمو المدن وقد ادى ذلك الى بداية اضمحلال النظام الاقطاعي وبدأ نمو الطبقة الوسطى ليكون لها دور في حياة المجتمعات الاوربية وهذه الطبقة هي التي تبنت حقوق الانسان وحرياته ، وظهر شعار رائج " ان قيمة الانسانية تكمن في ذاته" .

شهدت حقوق الانسان في العصر الحديث نهضة كبيرة بفضل عوامل كثيرة منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية فظهرت كثير من الافكار الجديدة في المجتمعات ومن ثم شهد التاريخ كثير من الثورات التحررية فظهر عدد من علماء الفلاسفة في أوربا واستحدثوا الافكار الجديدة في التنمية والحقوق والحريات مثل الفيلسوف الانكليزي جون لوك (توفي ١٧٠٤م) في كتابة الحكم المدني الذي دافع عن القانون وفي فرنسا اشتهر المفكر (بونتسكيو) وهو عالم الاجتماع توفي (١٧٥٥ م) الذي كتب كتابا سماه روح القوانين والذي انتقد بشدة الحكم المطلق .

في الوقت الذي دخل فيه العالم في الربع الاخير من القرن الثامن عشر الميلادي اذ شهد الغرب حدثين كان لهما الاثر الكبير لتحويل مجرى التاريخ في مجال حقوق الانسان ، فالحدث الاول تمثل بقيام ثورة الشعوب الامريكية ضد المستعمر الانكليزي واعلان الاستقلال الامريكي في عام ١٧٧٦م . اما الحدث الثاني فهو قيام الثورة الفرنسية ضد الحكم الامبراطوري وعلان حقوق الانسان والمواطن في عام ١٧٨٩ م ، وكانت ثورة ضد الظلم والاستبداد وتم حقوق الانسان والمواطن واعلان المبادئ الاساسية الثلاثة (الحرية – المساواة – الاخاء) وتم تجديد تلك المبادئ عام ١٧٩٣م.

ومن ابرز المناضلين الاحرار والداعين والمطالبين بالتحرر هو (المهاتما غاندي توفي : ١٩٤٨م) والذي قام بالعصيان المدني والتي ادت الى استقلال بلده الهند واصبح قدوة للكثير من الحركات المدنية الداعية للحقوق والحريات ومن الاحداث البارزة في التاريخ هو ظهور شخصية (مارتن لوثر كنج توفي عام ١٩٦٨م) والذي نادى باللاعنف او بالمقاومة السليمة والذي دعا الى عدم

التفرقة بين البيض والسود ونتيجة لنضاله بالعصيان المدني اصدرت المحكمة حكمها التاريخي الذي ينص على عدم قانونية هذه التفرقة العنصرية .

وقد شهد العالم الحرب العالمية الاولى في عام ١٩١٤م والتي خلفت ملايين من الضحايا سواء كانوا من القتلى ام من الجرحى من المدنيين والعسكريين في أوربا بعدها انبثقت عصبة الامم المتحدة التي لم تتضمن بنودا بشان حقوق الانسان وفي الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م وما تخللها من دمار وخراب وخسارة العالم ملايين البشر التي راح ضحيتها فضلا عن خسارة الاموال والممتلكات وحدوث كارثة انسانية في اليابان عام ١٩٤٥م بضرب مدينة هيروشيما وناكا زاكي بقنبلة نووية والمقصود بها اسلحة الدمار الشامل بعدها اسست الجمعية العامة للأمم المتحدة وبدأت مرحلة جديدة من تاريخ العالم مع بداية عقد الخمسينات من القرن الماضي